

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الإسلام إنما هي حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وإنما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية ، وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلا من سبل الصراع في هذا الميدان .

فليس في حالة سلم مع النبي إذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية ، ويقصده بالظعن في لباب رسالته الإسلامية ، وإن لم ينفر الناس لقتاله ولم يجرضهم على النكث بعهدده ، وإنما هو مقاتل في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة إلا ريثما تعود .

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحداً لا يحمل السلاح في وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب ازهاق حياته . وما نهض نابليون لنشر دين أو تنفيذ دين ، ولا كان للرسول الاسلامي من غرض لو جاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه في دينه وإن لم يشهروا السيف في وجهه ، فإن الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذي يضربون فيه .

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق إليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح . .

لم يتخذ محمد الحرب صناعة ، ولا عمد إليها - كما أسلفنا - إلا لدفع غارة واتقاء عداوة ، فإذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا إليه ، فله فضل سبق على جبار الحروب الحديثة الذي تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن في منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأُمي بين رمال الصحراء .

ولقد كانت خبرة النبي ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال ، فكانت طريقته في اختيار المكان والغرض أو في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والأنباع مثلا يحتذى في جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذي كثرت فيه ذرائع التخفية والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة ، فكثرت فيه - من ثم - حاجة المقاتلين إلى استقصاء أحوال الأعداء . .